دَلَالَةُ التَّرْكِيبِ المُنْتَظَمِ لِسِيَاقَاتِ النَّصْرِ فِي التَّعْبِيرِ القُرْآنِيِّ

أ. م. د عبد الجواد عبد الحسن علي البيضاني
كلية الآداب - جامعة أهل البيت

فحوى البحث

وصف القرآن الكريم كثيراً من حوادث الحرب التي دارت بين المسلمين والمشركين وبَيَّن في مواضع كثيرة مضامين النصر واسبابه وموجباته ونتائجه. وقد حاول السيد الباحث استقراء طائفة من آيات النصر الواردة في القرآن سواءً بلفظ (النصر) أم بألفاظ أخرى دالة على معناه.

وقد قُسّم البحث على قسمين:

أولهما: يبحث في لفظ (النصر) وهيأته الواردة في النصوص القرآنية.

وثانيهما: الألفاظ الدالة على معاني النصر في التنزيل العزيز.

وقد استغنى البحث عن مسرد بالمصادر، اذ أعطى مصادره هويتها كاملة في حواشي البحث.

توطئـــــة:

الحمـد لله رب العالميـن، والصـلاة والسـلام عـلى سـيد المرسـلين، وآلـه وأصحابه المنتجبين،

أمـا بـعـدُ: فقد اقتضت حكمة الله ومشيئته أن يتدافع الحق والباطل، وأن يتصارع الإيمان والكفر، والناظر في تاريخ الرسالات السماوية يجد ما يعضد ذلك ويؤيده، فما من نبي من الأنبياء إلا اعترضه قومه وخاصموه، وأظهروا له العداء، لكن الله تعالى كان في كل جولة من جولات الصراع يقف مع رسله وأوليائه الصالحين ويدحر الباطل وأهله، وهذا الصراع أزلي يتداول بتداول صراع الخير والشر. وما إن وصلت النوبة إلى الرسالة الإسلامية المحمدية حتى واجهت الدعوة الإسلامية منذ بزوغ فجرها تحديات مختلفة نهض بها أقوام وجدوا في هذه الرسالة تعارضاً وميولهم الشخصية ورغباتهـم، فقاوموا تلك الدعوة بإعلان مقاطعـة المسلمين الأوائل وإيذائهم وإخراجهـم من مكة المكرمة ومن ثم شن الحرب عليهم. مع أن الإسلام هو دين السلام، واسمه مشتق منه، والقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد، الذي نزل بلسان عربي مبين، لينشر مبادئ ذلك الدين الحنيف، وقد اصطفى الباري عز وجل النبي العربي محمدا بن عبد الله ﷺ رسولاً بهذا الدين وناطقاً بالقرآن الكريم ليكون رحمة للعالمين.

وقد وصف القرآن الكريم كثيرا من حوادث الحرب التي دارت بين المسلمين والمشركين، وبيّن في مواضع كثيرة مضامين النصر، وأسبابه وموجباته، ونتائجه، وقد حاولت استقراء طائفة من آيات النصر الواردة في التنزيـل العزيز، سواء بلفظ النصر وهيآته الصريحـة، ام بألفاظ أُخر دالة على معنى النصر، وكان الغرض من ذلك بيان مضامين عامة للنصر، أوضحتها الآيات الكريمة.

وقد اقتضت مادة البحث التي بين يديَّ أن اقسمها على قسمين، تناول القسم الأول منهما: لفظ النصر وهيآته الواردة في النصوص القرآنية. وتناول الثاني: الألفاظ الدالة على معنى النصـر في النصوص القرآنية.

القسم الأول:
النصر وهيآته الواردة في النصوص القرآنيـــــة:

النصر في اللغة يدلّ على: إتيان خير وإيتائه أو هو إعانة المظلوم، ونَصر الله المسلمين: آتاهم الظفـــر على أعدائهم، والنصر أيضاً: العطـاء، والاسم: النُصرة وهـي حسن المعـونـة، واستـنـصره على عـدوه: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا نصرَ بعضُهم بعضـــاً. ونـصره: نجّاه وخلّصَه. والـنـصر: العطاء. ونُصِرت الأرض، أي: أمطرت. والاستنصـــار: استمـداد النصر. والتناصر: التعـــاون على النصر، والانتصار[1]. وذهب بعضهم إلى أن ((الـنـصر أخـص من المعونـــة، لاختصاصه بدفع الضر، وتعدية النصر بمن لتضمنه معنى الحفظ، وبعلى لتضمنه معنى الغلبة))[2].

ومن هذه المعاني اللغوية يلحظ أن النصر إذا تحقق فهو خير عـام يتضمن كل هذه المعاني، فالعون الإلهي ضروري لتحقيق النصر، والتأييد المعنوي عامل مهم من عوامل النصر، والنصر عطاء فهو منحة ونعمة إلهية، والنجاة والخلاص نتيجتان من نتائج النصر وآثاره، فالمؤمنون إذا انتصروا على عدوهم فقد نجوا منه، وتخلصوا من ظلمه وقهره، وهكذا.

النصر في الاصطلاح:

لم يكثر المفسرون الخوض في تعريف معنى النصر من الناحية الاصطلاحيـــة، ومعظمهم اكتفى بذكر أحـد المعـــاني اللغوية، أو الإشـارة إلى معنى النصـــر بشكل مقتضب ومن ذلك مثلا :((النصر هو التأييد الـذي يكون به قهر الأعـداء وغلبهم والاستعلاء عليهم))[3] وفي كتب

(١) ينظر: مقاييس اللغة (نصر) ٤/ ٥٠٨ (ابن فارس، أحمد بن زكريا ت ٣٩٥هـ، تحقيق عبد السلام محمد هـارون، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م). وينظر: لسان العرب (نصر) ١١/ ٥٢٤ (ابن منظور، محمد بن مكرم، ت ٧١١هـ دار صـادر، بيروت، ١٩٦٨ م).

(٢) الكليات ٩٠٩ (أبو البقاء الكفوي، أيوب بـن موسى ت١٠٩٤هـــ، تحقيق عدنان الـدرويـش ومحـمـد المـصري، مؤسسة الرسالة، ط ٢، ١٩٩٣م).

(٣) فتح القدير ٥/ ٥٠٩ (الشوكاني، محمد بن علي بن محمد ت ١٢٠٥هـ، دار الفكر، بيروت، ط، د. ت).

القانون: ((النصر تعبير لاتيني مستخدم للدلالة على انتهاء الحرب، من دون وجود أي اتفاق شكلي أو ضمني، بتلاشي الدولة المهزومة، التي تختفي كدولة، وتحل محلها سلطة ذات سيادة أو أكثر))[٤].

وقيل أيضاً: النصر ((الفوز والغلبة على الأعداء، أو على المرض أو على الفقر أو الأهواء))[٥].

النصر في القرآن الكريم:

تحدّد معنى النصر في الإسلام بالنتيجة المباشرة للجهاد في سبيل الله، وتقيد بهذا المفهوم الديني ليتبعه الفتح بإذن العزيز الجبار من أجل نشر الإسلام وجعل كلمة الله هي العليا فالذي ينصره الله لا احد يغلبه، قال عز وجل: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾[سورة آل عمران: ١٦٠].

وقد ارتبط معنى النصر في الإسلام بمفهوم الجهاد في سبيل الله تعالى، وذكر القرآن الكريم هذه المادة وما إليها باشتقاقات وصيغ متعددة في (١٤) موضعاً[٦]، وفُسرت على أوجه تمثلت في[٧]:

- المنع، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ﴾[سورة الشعراء: ٩٣].
- بمعنى العون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[سورة الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ [سورة الحشر: ١٢].
- الظفر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٠].

(٤) معجم المصطلحات القانونية ٢/ ١٠٧٣ (جيرار، ترجمة :منصور القاضي، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.

(٥) القاموس القانوني الثلاثي١٦٦٩ (مويس نخلة وآخرون، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م).

(٦) ينظر: المعجم المفهرس (نصر)، (محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥م).

(٧) ينظر: الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ٢٣٩ -٢٤١ (مقاتل بن سليمان، ت١٥٠هـ، تحقيق عبد الله محمود شحاته، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م). والوجوه والنظائر في القرآن الكريم ٢٥٠ -٢٥١ (هارون بن موسى، ت١٧٠هـ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٩م).

- بمعنى الانتقـام، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[سورة القمر: ١٠].

ولعل هذا الإكثار من ذكر النصر، بصيغ متعددة، له دلالة على أهمية هذا المفهوم في القرآن، وأن له ارتباطات متنوعة، فكل صيغة تتناول أمراً يتعلق بالنصر من جهة بحسب السياق القرآني.

موجبات النصر:

من الأسباب التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لتحقيق النصر ما يأتي:

الأول: الابتلاء:

من الحقائق القرآنية الثابتة التي تناولها القرآن الكريم في مثل هذه النصوص وغيرها أنه لا نصر دون ابتلاء، ولا تمكين بلا ابتلاء، ومن يقف على حركة التاريخ، ويستقري حركة الصراع يصل إلى هذه الحقيقة، ورب قائل يقول :لماذا لا يكون النصر دون ابتلاء؟. وهل بالضرورة أن نبتلى حتى ننتصر؟. ونجيب أن النصر لا بد له من ثمن، والنصر بلا ثمن قد يستهان به، ويفرط به، من هنا كان الابتلاء ضرورة وثمناً للنصر كي لا يكون النصر رخيصاً فيستهان بالرسالات السماوية.

لذا اقتضت سنة الله تعالى أنه لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة، وفي اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرة من الطاقة المدخرة يجيء النصر من عند الله نصرا حاسما، فينجو الذين يستحقون النجاة ويحل بأس الله بالمجرمين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[سورة البقرة: ٢١٤] وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [سورة يوسف: ١١٠] ولربما يسأل سائل هنا: أليس في مثل هذا السؤال شكاً أو ارتياباً؟. ولربما تكون الإجابة: إن قول الرسول متى نصر الله ليس على سبيل الشك، إنما هو على سبيل

الدعاء باستعجال النصر، وتفسير ذلك أن سؤالهم متى نصر الله؟. جاء ليصور مدى المحنة التي تزلزل هذه القلوب، وهي محنة فوق الوصف جاءت لتلقي بظلالها على تلك القلوب فتبعث السؤال المكروب، وعندما تثبت القلوب على هذه المحنة المزلزلة تتم كلمة الله ويجيء النصر من الله ألا إن نصر الله قريب. من هنا وصف سبحانه النصر بأنه قريب لما فيه من بشارة للمؤمنين بعد طول انتظار[٨].

الثاني: قانون الأسباب والمسببات:

إن هذا الأمر له ارتباط بما ذُكر قبلُ، فالنصر يخضع لقانون الأسباب والنتائج، فهو لا يأتي صدفة، ولا عشوائية، إنما يخضع لسنة وقانون، لذا فإن عملية توقع النصر والحساب له، ينبغي أن تكون مبنية على دراسة أسبابه ومقدماته، فإن تحققت شروط النصر وأسبابه كاملة تحقق النصر، وإلا فلا، غير أنه في كثير من الأحيان يتراءى للمتعجل أن النصر قد غدا وشيكاً، وأنه في متناول اليد، ثم يفاجأ بالهزيمة، وما ذلك إلا لأن المتسرع والمتعجل لا يحسن قراءة النصر، ولا يمكنه التوقع له. والبشر بطبيعتهم القاصرة يرجون النصر السريع، ويتوقعونه كلما لاحت إشاراته، فإذا لم يحصل النصر كما توقعوا فإنهم يصابون باليأس والقنوط، وقد ينحرف بعضهم، وفي كثير من الأحيان وعند اشتداد الأزمات يسأل الناس :لماذا يتأخر النصر؟. لماذا أبطأ النصر؟. لماذا تحول نصرنا إلى هزيمة؟. لكن الذي يقرأ سنة النصر بالميزان الرباني لا يفاجأ مهما رأى، لأنه يعلم أن تأخر النصر وإبطاءه جزء من قدر الله الذي يخضع لحِكَم ربانية نجملها فيما يأتي[٩]:

- قد يتأخر النصر لأن الأمة لم تنضج لنيل النصر، ولو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكاً لعدم قدرتها على حمايته.
- قد يتأخر النصر، لأن الأمة لم تصل إلى قناعة أن قوى الدنيا كلها مجتمعة لا تكفل لها النصر دون سند الله تعالى، فلا بد أن تتذوق الأمة مرارة تأخر النصر حتى تترسخ هذه القناعة.

(٨) في ظلال القرآن١/ ٢١٩ (سيد قطب، ط٢، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٩م).

(٩) المصدر نفسه ٤/ ٢٤٢٦.

- قد يتأخر النصر حتى توثق الأمة صلتها بالله، وتعلم أن هذه الصلة هي الضمانة الوحيدة لاستقامتها بعد تحقق النصر.
- قد يتأخر النصر حتى تتجرد الأمة من كل شائبة قاتلت لأجلها كالمغنم أو الحمية.

الثالث: صحة الاعتقاد بأسباب النصر:

عرض القرآن مواقف ظن فيها بعضهم أن النصر قد أصبح في متناول اليد، لكن النصر تأخر لخلل، من ذلك يوم حنين حين اعتقد أصحاب رسول الله ﷺ أنهم منصورون لكثرتهم، وأنهم لن يغلبوا من قلة، لكن العدو باغتهم وفرق جمعهم، لولا ثبات رسول الله ﷺ، وثلة من أصحابه المخلصين، ولولا رحمة الله بهم لهُزموا شرَّ هزيمة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[سورة التوبة: ٢٥ -٢٦].

وفي هذه الآيات ((تذكير للمؤمنين بنصر الله لهم، وابتلاؤه إياهم بالتولي والهزيمة يوم حنين على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها، ونصرهم من بعد ذلك ليتذكروا أن عنايته تعالى وتأييده لرسوله وللمؤمنين بالقوى المعنوية أعظم شأنا من القوى المادية... وأن نصر الله لهم لم يكن بقوتهم، أو عصبية أحد منهم، أو قوة مالهم إنما كان ذلك بفضل الله تعالى عليهم، وما أنزله عليهم من السكينة، وما أمدّهم به من جنود))[١٠].

وقد عرض القرآن صورة من صور الابتلاء الذي تعرض له المؤمنين، قبل تحقق النصر، وقد تجلى ذلك يوم الأحزاب، قال سبحانه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[سورة الأحزاب: ١٠]

(١٠) المنار ١٠/ ٢١٦ -٢١٧ (محمد رشيد رضا، الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م).

ففي هذا الموقف كان الابتلاء شديداً على المؤمنين، فقد أطبق الكفر عليهم من كل حدب وصوب، حتى زاغت الأبصار، فمالت عن سداد القصد، وبلغت القلوب الحناجر، لشدة الرعب والخفقان(١١).

الرابع: الاستعداد للنصر:

إن فكر التواكل والهزيمة أفرز لدى المسلمين مفاهيم وتصورات خاطئة كثيرة، ومن هذه الأوهام أن البعض ينتظر من هذا الدين أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحرية خارقة غامضة الأسباب، دون اعتبار لطبيعة البشر، ولطاقتهم البشرية. وحين يرون أنه لا يعمل بهذه الطريقة فإنهم يصابون بخيبة أمل، وتضعف ثقتهم بجدية هذه المنهاج للحياة، وقد يصابون بالشك في الدين إطلاقاً(١٢)، من هنا نسمع بين الحين والآخر أسئلة مشككة :أليس هو دين الله؟. أليس الله قادرا على كل شيء؟. فلماذا لا ينصرنا دائما؟. ولماذا ينصر عدونا علينا؟.

ولعل هذا الخطأ يرجع إلى الجهل بهذا الدين وطريقته في العمل وآليته في تحقيق النصر، إن هذا الدين منهج إلهي للحياة البشرية، يتم تحقيقه في حياة البشر بجهد البشر أنفسهم، في حدود طاقتهم البشرية، وفي حدود الواقع المادي للحياة الإنسانية. إن هذا الدين لا يتحقق في الأرض بكلمة (كُن) الإلهية، ولا يتحقق بمجرد إبلاغه للناس، ولا يتحقق بالقهر الإلهي، إنما يتحقق بأن تحمله جماعة من البشر، فتؤمن به إيماناً تاماً، وتستقيم عليه، وتجتهد لتحقيقه في قلوب الآخرين، ثم تنتصر هذه الجماعة على نفسها أولا، ثم تنتصر على غيرها. وقد أولى القرآن هذه المسألة اهتماماً بالغاً وأشار إليها في مواقع عدة من كتابه العزيز، فبيّن سبحانه في نصوص قرآنية متعددة أن الجهد البشري له دور بارز في تحقيق النصر والتغيير والهداية، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩] وقال تعالى:

(١١) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن٤/ ٢٨٨ (الطبري، محمد بن جرير ت ٣١٠هـ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠م).

(١٢) ينظر: البحر المحيط٢/ ٣٧٤ (أبو حيان، محمد بن يوسف، ت ٧٤٥هـ، مطابع النصر الحديثة، الرياض).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[سورة الأنفال: ٥٣] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾[سورة الرعد: ١١] وتشير الآيات إلى أن المنهج الآلهي للنصر يقتضي تغييري: التغيير الأول هو تغيير الله تعالى، والتغير الثاني هو تغيير البشر. وأن التغيير الأول وهو التغيير الإلهي يأتي بعد التغيير البشري.

إذن، لا بد من الجهد البشري حتى يتبعه التغيير الإلهي بتحقيق النصر، وما يتبعه من تغيير، فإذا لم يتحقق التغيير الأول فلن يحدث التغيير الثاني ((وفي الآية إيماء إلى أنّ نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواماً بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها، فما دامت هذه الشؤون ثابتة لهم متمكنة منهم، كانت تلك النعم ثابتة لهم، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جرم، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق، غير الله حالهم وسلب نعمتهم منهم... وقد جرت سنة الله تعالى ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التي استحقوا بها تلك النعمة))[١٣].

ومن الأمثلة على الهيآت التي وردت فيها مادة (نصر) في القرآن الكريم، واختلاف دلالاتها، ما نلمحه في آيتين كريمتين ورد فيهما لفظ النصر، هما قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾[سورة الحج: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [سورة الحديد: ٢٥] ففي الآية الكريمة الأولى ورد لفظ النصر مؤكداً بـ (إنّ) و (اللام)، وفي الآية الثانية ورد لفظ النصر من دون توكيد، وإنما أكد اللفظ في الأولى، لأن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين في الجهاد وقتال الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادر على نصرهم، وقد وعدهم بالنصر، فقال مؤكدا ذلك: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[سورة الحديد: ٢٥] ولا شك في أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته

(١٣) تفسير المراغي ١٠/ ١٧ (أحمد مصطفى، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٤م).

بـ (إنّ واللام)، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة، وليس السياق كذلك في الآية الثانية، لأنها ليست في سياق الجهاد والقتال، ولا في سياق نصر الله المؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله[١٤].

ووردت لفظة النصر في قولة تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة الروم: ٤٧] وإنما قدم المسند إليه، ليفيد التوكيد، فمن التعجيل بذكر لفظ (حقاً) ((يشعر السامع مبالغة في تكريم المؤمنين الذين يُظهرون سابقة الفضيلة والإيمان والجهاد في سبيل الله، فجعلهم مستحقين للظفر والنصر))[١٥] أي: إن تقديم الخبر (حقاً) على الاسم (نصر) جاء منبئاً بالامتنان على المؤمنين، مشجعا لهم، مشعرا بالتوكيد والاطمئنان في نفوسهم.

القسم الثاني:

الالفاظ الدالة على معنى النصر:

ما استطعتُ أن استقريه منها ما يأتي:

١. الأخذ:

الأخذ في اللغة: حوز الشيء وجبيه وجمعه، وهو خلاف العطاء، يقال: أخذتُ الشيءَ آخذه أخذا: تناولتُه[١٦] وقد جاء لفظ (الأخذ) وما اشتق منه في (٢٧١) موضعاً من القرآن الكريم[١٧]. وللأخذ خمسة أوجه ذكرها أصحاب الوجوه والنظائر[١٨] وهي:

أ. الحبس: في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ ﴾ [سورة يوسف: ٧٦].

ب. القبول: في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾[سورة الأعراف: ١٩٩].

ج. العذاب: في قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾[سورة النساء: ١٥٣].

د. القتل: في قوله تعالى: ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾[سورة غافر: ٥].

(١٤) ينظر: التعبير القرآني ١٥٥ (د. فاضل السامرائي، جامعة بغداد، بيت الحكمة، ١٩٨٦).

(١٥) البحر المحيط ٧/ ١٧٨.

(١٦) ينظر: مقاييس اللغة١/ ٦٨، والصحاح٢/ ٥٥٩ (الجوهري، إسماعيل بن حماد، ت في حدود ٤٠٠هـ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار الكتاب العربي، مصر).

(١٧) ينظر: المعجم المفهرس (أخذ).

(١٨) ينظر: الأشباه والنظائر م٢٥٠والوجوه والنظائر ٢٦٤.

ه. الأسْر: في قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [سورة التوبة: ٥].

وقد استعملت هذه المادة من ألفاظ النصر مقرونة بالقتل، دالة على هزيمة المنافقين في اغلب مواضعها، قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[سورة النساء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[سورة النساء: ٩١].

وقد يكون الفرق بين الآيتين أن (الثقف) هو الوجود على وجه الغلبة، أي: إذا قدرتم على المشركين، وتمكنتم من الظفر بهم فاقتلوهم، واحتاطوا لهذا الشرط في قتلهم، لأنكم عند المسجد الحرام، الذي لا يحل القتال فيه إلا برخصة من الله، أما (الوجدان) فأعم من ذلك، أي: فاقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه وفي أي وقت، فالفرق بينهما بلحاظ الحل والحرم.

ولا يخفى ما في دلالة الفعل (خذوهم) من تجسيد للصورة العنيفة لأخذ المشركين، إذ توحي بأن لا تأخذ المسلمين رحمة ولا رأفة بأعداء الله. وهذا ما لخصته الآية الكريمة: ﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [سورة الأحزاب: ٦١] وفي سياق الآية ما يغني عن وصف سوء حال أصحابها، واستحقاقهم غضب الله تعالى في الدنيا، وإظهار خبث سرائرهم ونفاقهم ولعنهم في الآخرة بما أعده الله لهم من عذاب أليم.

و(التقتيل): تفعيل من القتل بمعنى كثرة القتل أو شدته[١٩]، ويدل على ذلك المصدر المشتق من لفظ فعله المنصوب على المفعولية المطلقة (تقتيلاً).

٢. **الأمر:**

الأمر بالفتح: نقيض النهي، وأما الإمر بالكسر فهو العجب، وأما الأمر بالضم: فجمع أمور، من قولهم: فلان أمور بالمعروف والأمر أيضا: الحادثة، وتآمروا على الأمر وائتمروا: اجمعوا آراءهم وتشاوروا[٢٠].

(١٩) ينظر: الكشاف٣/ ٥٦١ (الزمخشري، محمود بن عمر، ت٥٣٨هـ، دار الكتاب العربي، بيروت).

(٢٠) ينظر: المثلث ١/ ٣١٢-٣١٤(البطليوسي،

وقد ذكرت لفظة الأمر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وتوسع معناها كثيراً عما عرفت به سابقاً. وقد فسرت على وجوه متعددة منها: (الدين، والقول، والعذاب، وعيسى، والقتل ببدر، وفتح مكة، والقيامة، والقضاء، والوحي، والنصر، والدين، والموت، والشدة، والمشورة، والحذر، والخصب)[٢١].

ومما ورد منها دالاً على النصر، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾[سورة التوبة: ٤٨] أي: غلب شرعه[٢٢] ومن إضافة (الأمر) إلى (الله) يستفاد أن النصر وإعلاء كلمة الدين وظهور الإسلام على الأديان الأخرى معقود بإرادته سبحانه وتعالى، لا دخل لأحد غيره فيه. وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى مخاطباً المسلمين يوم أحد: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾[سورة آل عمران: ١٥٤]، وفي توجيه الخطاب للرسول الكريم، بيان لهم بأنه واسطة الفيض والمبلغ الوحيد عن ربه وانه وضع ثقته وتشريقه. والاستفهام بـ (هل) في الآية استنكاري، بمعنى النفي بقرينة زيادة (من) قبل النكرة، وهي من خصائص النفي. وهو تبرئة لأنفسهم من أن يكونوا سببا في مقابلة العدو، وتعريض بأن الخروج للقتال يوم أحد كان خطأ كبيرا، فهم يظنون أن محمداﷺ ليس برسول، إذ لو كان رسولا لكان مؤيدًا بالنصر[٢٣].

ويبدو أن السرَّ في جمال أسلوب الاستفهام هنا والعدول إليه عن أسلوب النفي هو ((أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، وكما أن المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من

عبد الله بن محمد، ت٥٢١هـ، تحقيق د. صلاح الفرطوسي، دار الحرية، بغداد، ١٩٨٢م)، و لسان العرب١/ ١٢٧.

(٢١) ينظر: الأشباه والنظائر١٩٢ -١٩٥.

(٢٢) ينظر: الكشاف ٢/ ١٩٤.

(٢٣) ينظر: التحرير والتنوير٤/ ٢٦ (محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر).

النفي ابتداء))[٢٤].

٣. **البشرى:**

قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((الباءُ والشين والراء: أصلٌ صحيح يدلّ على ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرةُ: ظاهرُ جلد الإنسان، وُسمي البشرُ بشرا، لظهورهم. والبشيرُ: الحسن الوجه. والبشارة: الجمال. ويقال: بشّرت فلانا ابشّره تبشيرا وذلك يكون في الخير، وربما حُمل عليه غيره من الشر، وقد يراد به التبكيت))[٢٥].

والبشارة عند الراغب (٥٠٢هـ): ((أول ما يصلُ إليك من الخبر السارّ، فإذا وصل إليك ثانياً لم يسمَ بشارة))[٢٦] وذكر الزمخشري (٥٣٨هـ): ((أنّ استعارةَ البشير للعذاب، الذي يُقصد به: الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزئ به وتألمه واغتمامه))[٢٧] وقد ذكرت هذه المادة في القرآن الكريم في (٨٤) موضعا[٢٨] واستعملت دالة على النصر، كاشفة عما ناله المؤمنون من جزاء دنيوي في ساحة الحرب في آيتين من آي القرآن الكريم، بشرتا المؤمنين بإمدادهم بالملائكة، يكونون سنداً لهم في حربهم ضد أعدائهم قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٦] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[سورة الأنفال: ١٠] وثمة ملمح دلالي في الآيتين الكريمتين[٢٩] إذ ورد لفظ (القلوب) متقدماً على الجار والمجرور في الآية الأولى، ومتأخرا عنه في الثانية، والضمير في (به) يعود على

(٢٤) من بلاغة القرآن١٦٤ (د. أحمد بدوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، ط٣، ١٩٥٠م).

(٢٥) مقاييس اللغة١/ ٢٥١-٢٥٢.

(٢٦) المفردات في غريب القرآن ٤ -٤٨ (الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، ت ٥٠٢هـ، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة، بيروت).

(٢٧) الكشاف ١/ ١٠٤.

(٢٨) ينظر: المعجم المفهرس (بشر).

(٢٩) ينظر: ملاك التأويل١/ ١٧٠، (الغرناطي، أحمد بن الزبير، تحقيق محمود فاضل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م). و التعبير القرآني ٦٨.

الإمداد بالملائكة.

والكلام في الآيتين يصور معركة بدر، لكن الموقف مختلف، ففي الأولى ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر معركة أحد وما أصاب المسلمين فيها من حزن وفرح، لذا اقتضى المقام أن يكون مؤخراً عن القلوب، طمأنة لها ومواساة للمسلمين، فجاء لفظ (البشرى) مخصصاً بهم بطريقتين، الأولى: الحصر بـ (إلا)، والأخرى: الإتباع بالجار والمجرور(لكم)، ولما كان المقام في هذه الآية هو الطمأنة وتسكين القلوب تقدمت (البشرى) على الإمداد بالملائكة، زيادة في المواساة والمسح على القلوب.

أمـــا في الآية الثانية، فالحديث فيها معقود لتصوير معركة بدر وحدها وانتصار المسلمين فيها وأثر الملائكة المنزلين للقتال في صف المسلمين، لذا جاء التعبير فيها مخالفاً الأولى، إذ قُدم الجار والمجرور(به) على(القلوب)، لأن المقام مقام انتصار، وإبراز الإمداد الرباني بالملائكة.

ومن هنا ورد اللفظ في فاصلة الآية الأولى (العزيز الحكيم) معرفاً وفي فاصلة الثانية(عزيز حكيم) منكراً، مراعاة لطبيعة التعبير القرآني، فلفظ التنكير يفيد العموم ولفظ التعريف يفيد التخصيص والتعيين، والنصر في الأولى حاصل بالطمأنة والمسح على القلوب، فقال -جلَ وعلا-: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وأما في الثانية، فعام يشمل أنواع النصر وهيآ ته جميعها، لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٤. **التمكين:**

التمكين في اللغة :السلطنة ونفاذ الأمر على الخلق، وفلان مكين عند فلان، أي بيِّنُ المكانة، والمكانة :المنزلة عند الملك ورفعة الشأن، وقولهم :إن بني فلان لذو مكنة عند السلطان، أي :تمكن، ومَكُنَ فلانٌ عند الناس :أي عظم عندهم. وتمكَّن من الشيء، أي قدر عليه وظفر به، وأمكنه من الشيء :جعل له عليه سلطاناً وقدرًة، وتمكّن عند الناس :علا شأنه، والمكنة: القدرة والاستطاعة والقوة والشدة[٣٠] .

من هـذه المعاني يتضح أن التمكين

(٣٠) ينظر: لسان العرب (مكن) ١٣/ ٤١٢-٤١٣.

فيه عدة معاني، منها: السلطان والمنزلة والمكانة وعلو الشأن، والعظمة، والقوة والاستطاعة والشدة.

التمكين في الاصطلاح:

لم يرد للتمكين اصطلاح معين، ولكن من المعنى اللغوي له يمكن أن يتضح معناه الاصطلاحي بأنه: بلوغ حال من النصر، وامتلاك قدر من القوة، وحيازة شيء من السلطة والسلطان وتأييد الجماهير والأنصار والأتباع، وهو لون من ألوان الترسيخ في الأرض وعلو الشأن.

التمكين في القرآن الكريم:

وردت مادة (م ك ن) بصيغ واشتقاقات عدة في القرآن الكريم، بلغت ثماني عشرة مرة[٣١]، ولم ترد كلمة (تمكين) صراحة في القرآن الكريم، أما (م ك ن) فقد ورد في القرآن الكريم بعدة معانٍ، منها:

١. المُلك والسلطان: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سورة الكهف: ٨٤]، أي: أعطيناك ملكاً عظيماً فيه من جميع ما يعطى الملوك من التمكين والجنود[٣٢].

٢. المنزلة والمكانة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٤] أي: إنك عندنا ذو مكانة وأمانة.

٣. التهيئة :ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [سورة القصص: ٥٧].

٤. لظفر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٧١]، أي: أقدرك عليهم، فاعلم أنه سيمكنك منهم[٣٣].

٥. الثبوت والاستقرار :ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [سورة المرسلات: ٢١]، أي: جعلنا الماء المهين في رحم استقر فيها فتمكن[٣٤].

(٣١) ينظر: المعجم المفهرس (مكن).

(٣٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم٣/ ١٠٦(ابن كثير إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ، تقديم: يوسف المرعشلي، ط ٣، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩.

(٣٣) المصدر نفسه ٢/ ٤٤٩.

(٣٤) ينظر: جامع البيان٢٩/ ١٤٤.

آيـــــة التمكين:

قـال تـعـالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[سورة النور: ٥٥].

هـذه الآيـة الكريمة جـاءت جامعة لجملة قضايا تتعلق بالتمكين فقد اشتملت على الوعد بالتمكين، وشروط التمكين، وآثـاره، وما يترتب على الكفر بعد هذا التمكين.

أولا :الوعد بالتمكين:

تضمنت الآيـــة الكريمة وعداً إلهياً لعباده المؤمنين، إذا تحققت فيهم شروط التمكين، وقد اشتمل هذا الوعد الإلهي عـلى ثـلاثـة أمـور ورد ذكـرهـا في الآيـة الكريمة، وهي:

أ. الاستخـــــــــلاف في الأرض: "ليستخلفنّهم في الأرض".

ب. التمكين في الأرض "وليمكننْ لهم دينهم".

ج. إبدال ما هم عليه من خوف إلى أمن: "وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمنا".

شروط التمكين:

وأقصد بـشروط التمكين الـشروط الأساسية التي شرطهـــا الله تعالى على الأمـة، فإن قامت بهـا حق القيام حصل لها التمكين، وإن فرطت فيها زال عنها التمكين وتملكها الخوف وتخطفها الأعداء وهـذه الـشروط ذكرتها الآيـة الكريمة، وهي:

أ. الإيمان بالله وعدم الشرك به: (الذين آمنوا منكم)، (لا يشركون بي شيئاً).

ب. الـعـمـل الـصـالـح (وعـمـلـوا الصالحات).

ج. العبادة (يعبدونني).

٥. الظفر:

في اللغة:

الظفـــر بمعنى النصر، معنى معنوي مشتق من معنـــاه الحسي فالظفر: ظفر الأصبـــع، وظفر الطائر، وظَفَرَ فلان في وجه فلان، غرز أظفاره في لحمـــه، ويُعبر به عن السلاح تشبيهاً بظفر الطائر إذ هو له بمنزلـــة سلاح، ومن هذا المعنى المادي

قيل: ظفرَ بعدوه غلبه. والظفـــر الفوز بالمطلوب، ورجلٌ مظفر صاحب دولة في الحرب لا يؤوب إلا بالظفر[٣٥]. وهو المعنى الاصطلاحي له.

في القرآن الكريم:

وردت مادة ظفر في القرآن الكريم دالة على النصر والغلبة على العدو في قوله تعالى في بيان حال المسلمين والمشركين في صلح الحديبية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [سورة الفتح: ٢٤] ويلحظ من سياق الآية أن الظفر هبة إلهية يمنحها الله سبحانه من يشاء من رحمته، لمن هيّأ لها الأسباب، فقد بايع المسلمون رسول الله ﷺ بيعة الرضوان، فرضي عنهم سبحانه ورضاه يستوجب نعمته وألطافه ومننه ونصره فشاءت قدرته أن يُكتب الظفر لَمن بايع بيعة الرضوان[٣٦]، فكف أيدي المندسين في صفوف المسلمين ليأخذوهم غيلةً، فأخذهم أصحاب الرسول أسرى، ثم عفا عنهم الرسول الكريم بأمر الله سبحانه، وكفّ أيدي المسلمين عنهم لحكمة يعلمها سبحانه سيكون فيها الخير كله للمسلمين. فالظفر هنا حقق الفوز بالمطلوب والغلبة على كيد الأعداء والنصر عليهم.

٦. الغلبة:

ورد في معنى مادة (غلب) في اللغة أنّ: الغين واللام والباء أصلٌ صحيح يدلّ على قوة وقهر، وشدة، يُقال: غلبتُه غلباً وغلبةَ، فأنا غالبٌ. وتغلب على بلد كذا أي استولى عليه قهراً، ورجل غَلَبَةٌ :شديد الغلبة، والمُغلَّب من الشعراء :المحكوم له بالغلبة على قرنه، كأنه غلبَ عليه، قيل: وأصل غلبت: أن تتناول غَلَبَ رقبتِه، والأغلب: الغليظ الرقبة والغَلَبة :القهر[٣٧].

ويلحظ من هذه المعاني اللغوية بأن من معاني الغلبة :القوة والقهر والشدة والاستيلاء، والتغلب على الأقران، وكل هذا من مستلزمات النصر، ولا شك أن

(٣٥) ينظر: المفردات ٥٣٥، ولسان العرب (ظفر)٤/ ٥١٩.

(٣٦) ينظر: جامع البيان ٢٢/ ٢٣٦.

(٣٧) ينظر: مقاييس اللغة (غلب) ٤/ ٢٨٨، والمفردات ٣٦٣.

هذه المعاني من مستلزمات النص وأثاره ونتائجه.

وقد وردت هذه المادة في (٣١) موضعاً في القرآن الكريم[٣٨] وذُكرت لها أربعة معانٍ في القرآن، هي:

١. القهر، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ ﴾[سورة يوسف: ٢١] أي قاهر ومنه أيضاً قوله تعالى :﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [سورة الصافات: ١٧٣]، أي: القاهرون.

٢. القتل، ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٢].

٣. الظهور ومنه قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [سورة الكهف: ٢١].

٤. الهزيمة، ومنه قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [سورة الروم: ٢-٣]، أي: سيهزمون الفرس، وهو إخبار منه تعالى بتحقق ذلك قبل أن يقع[٣٩].

والغلبة لها صورتان:

الأولى: غلبة مادية بالقوة والسيف والسنان، وهي ثابتة لبعض الأنبياء الذين أُمروا بالقتال.

والأخرى: غلبة معنوية بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميع الرسل والأنبياء.

إلا أن أغلب معاني الغلبة في القرآن يراد بها الغلبة بالسيف والسنان، كقوله سبحانه: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾؛ وقوله أيضا: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَۢةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة البقرة: ٢٤٩] فالملاحظ في هاتين الآيتين أن الغلبة المقصودة هي الغلبة المادية التي تكون بالسيف والسنان، ويستفاد من الآية الكريمة: ﴿ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَۢةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، أن كثرة الجنود ليست هي منشأ الغلبة، بل الله سبحانه يمتنُّ على عباده المؤمنين فيحقق نصرهم وغلبتهم، وفي الكلام احتجاج

(٣٨) ينظر: المعجم المفهرس (غلب).

(٣٩) ينظر: جامع البيان ٢٠/ ٧٣.

على الخصم، لإقناعه ببعض المصاديق[٤٠] وهي حقيقة واقعية طالما ذكَر الله بها عباده الراجين النصرة في القتال، فذكَر بها من هذه المادة أيضاً بصيغة المضارع المشروط بالصبر، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سورة الانفال: ٦٥].

ولعل في تقديم خبر(كان) وهو (منكم) على اسمها (عشرون) إشعاراً بكمال العناية بشأن المؤمنين الصابرين، إذ هم يعادلون جيشاً كثير العدد. وإنما لم يذكر المميّز بالنسبة إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾ لقلة العدد وذكره سبحانه فيقوله: ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لكثرة العدد.

و وردت هذه المادة بصيغة المضارع المسبوق بـ (سين الاستقبال)في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [سورة الروم: ١-٣] وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢].

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ و ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ تحقق هذا الوعد الإلهي مستقبلاً تحذيراً للكفار بأن لا يغتروا بقوتهم الظاهرية، إذ إن إرادة الله غالبة لا محالة[٤١].

واستعملت مادة (غلب) بصيغة اسم الفاعل الدال على الاستمرار في قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٠] بيان لنفي الجنس بنفي أفراده جميعاً، ذاتاً وصفة، وهو أبلغ من قول (لا يغلبكم أحد)، لأنه يدل على نفي الصفة فقط[٤٢]. وقد أكد القرآن هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [سورة المائدة: ٥٦] أي: ثبات الغلبة لهم

(٤٠) ينظر: تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) ١/ ١٢٦ (النسفي، عبد الله ابن أحمد، ت ٧١٠هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٨م).

(٤١) ينظر: معاني القرآن للفراء٢/ ٣١٩ (الفراء، يحيى بن زياد ت ٢٠٧ هـ، تحقيق محمد علي النجار وإسماعيل شلبي وعلي النجدي، القاهرة، ١٩٥٥-١٩٧٢م).

(٤٢) صفوة البيان لمعاني القرآن ٥٠٨ (الشيخ حسنين محمد مخلوف، دار الفكر، ١٩٨١م).

في عاقبة أمورهم في الدنيا والآخرة[٤٣].

٧. **الفتح:**

الفتح في اللغة: نقيض الإغلاق، أو هو: إزالة الإشكال والإغلاق، يُقال منه: فتحه يفتحه فتحاً، وافتتحه وفتحه فانفتح وتفتح. وفتّحت الأبواب- شُدد للكثرة-ففُتحتْ، والاستفتاح: الاستنصار واستفتحت على فلان :أي سألته النصر. والفتح أن تفتح بين قوم يختصمون إليك،. والفتح هو افتتاح دار الحرب. والفتح :النصر والظفر، لأنه يفتح باباً مغلقاً، والفتح ضروب :منها ما يدرك بالبصر كفتح الباب والقفل والمتاع، ومنها ما يدرك بالبصيرة، كفتح الهم وإزالة الغم، ومنها فتح المستغلق من العلو[٤٤].

أما الفتح في الاصطلاح :فهو الظفر بالمكان والمدينة والقرية سواء، كان بحرب أو بغير حرب، أو كان دخول عنوة أو صلح، فهو فتح، لأن الموضع إنما يكون منغلقاً، فإذا صار في اليد فهو فتح. وقيل: الفتح: فتح مساكن الأعداء ودخول منازلهم[٤٥].

الفرق بين النصر والفتح:

في سورة النصر عطف سبحانه الفتح على النصر في قوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [سورة النصر: ١] وبهذا العطف كأنه أشار سبحانه إلى أن النصر غير الفتح، وأن بينهما فرقاً، وقد فرق العلماء بين النصر والفتح بما يأتي[٤٦]:

أ. أن النصر هو الظهور على الأعداء والاستعلاء عليهم ولو لم يتم فتح بلادهم، والنصر قد يتحقق دون أن يتبعه فتح للبلاد، أما الفتح فلا يتحقق إلا بدخول بلاد الكفار كما في فتح مكة.

ب. أن النصر سبب للفتح، ولولا حصول النصر لما تمكن المسلمون من فتح البلاد ودخولها.

(٤٣) ينظر: الجامع لأحكام القرآن٤/ ٢٦٥ (القرطبي، محمد بن أحمد، ت ٦٧١هـ، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٨م).

(٤٤) ينظر: مقاييس اللغة (فتح) ٤/ ٤٦٩، والصحاح(فتح) ١/ ٣٨٩.

(٤٥) ينظر: فتح القدير٥/ ٥٠٩.

(٤٦) التفسير الكبير٣٣/ ١٥١ (الفخر الرازي، محمد بن عمر بن الحسين، ت ٦٠٦هـ، دار الكتب العلمية، طهران، ط ٢، د. ت)، و مدارك التنزيل ٢/ ٨٣٨.

ج. الفتح مرتبة أعلى من النصر، وهي تعقبه، فالفتح ليس ظهور على العدو فحسب بل هو دخول البلاد وفتحها.

الفتح في القرآن الكريم:

ورد لفظ الفتح في (٣٨) موضعاً في القرآن الكريم، وذُكرت كلمة الفتح لفظاً صريحاً ثماني مرات[٤٧]. والفتح في القرآن على أربعة أوجه[٤٨]:

أ. الفتح الذي هو ضد الاغلاق، منه قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ [سورة الزمر: ٧٣].

ب. الفتح بمعنى القضاء، ومنه قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [سورة الأعراف: ٨٩].

ج. الفتح بمعنى الإرسال، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [سورة فاطر: ٢].

د. الفتح بمعنى النصر، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾ [سورة المائدة: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ ﴾ [سورة الصف: ١٣].

واستعمل (الفتح) من ألفاظ النصر في التنزيل العزيز علماً على فتح مكة، قال تعالى: ﴿ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ ﴾ [سورة الحديد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ ﴾ [سورة الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [سورة النصر: ١].

وقد عُبر عن هذا النصر العظيم بصيغة (الفعل ومصدره) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [سورة الفتح: ١]، يقول الزمخشري في الآية الكريمة: وجيء بالفعل ماضياً (على عادة رب العزة سبحانه في أخباره، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة، وفي ذلك من الضخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى)[٤٩].

وذُكر هذا الفتح بصيغة الترجي في

(٤٧) ينظر: المعجم المفهرس(فتح).

(٤٨) ينظر: نزهة الأعين النواظر ٤٦١ -٤٦٢ (ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي ت٥٩٧هـ، دراسة وتحقيق محمد الراضي، ط ٣، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م).

(٤٩) الكشاف ٤/ ٣٣٢.

قوله تعالى: ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ ﴾ [سورة المائدة: ٥٢] وفي سياق الآية تتضح حقيقة واقعية هي ظهور الحق وغلبته على الباطل، وأن كل ظلم وباطل لابد أن تظهر فضيحتها، فينقطع رجاء كل طامع بالباطل، متوسل إليه بوسائل صورها بصورة الحق، وفي المقام بين سبحانه وتعالى وعده للمؤمنين بالفتح والغلبة على الكافرين، فالآية وعد محتوم منه سبحانه من جهة أن (عسى) منه تعالى جزم وحتم[٥٠].

وورد (الفتح) مسنداً إلى المشركين تهكما في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ [سورة الانفال: ١٩] أي: إن تطلبوا أيها المشركون النصر لأعلى الجندين وأهدى الفئتين فقد جاءكم النصر، إذ نصر الله الأعلى والأهدى، وفي قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ تأكيد لمجيء هذا النصر، ولم يرد مثلا (جاء لكم النصر) إشعارا بأن هذا النصر سيكون بغتة عليهم يفاجئهم من حيث لا يخشون، وأنه واقع عليهم قريبا[٥١].

٨. **الفوز:**

للفوز في اللغة معانٍ متعددة، منها: الظفر بالأمنية والظفر بالخير مع حصول السلامة، والنجاة من الشر، يُقالُ: فاز سهمُه :إذا غلب، وفاز بفائزة، أي شيء يصيب به الفوز. والمفازة المهلكة سميت بذلك تفاؤلا للفوز[٥٢].

ويستخدم الناس لفظة الفوز فيما بينهم للدلالة على صور مختلفة من النجاح الذي يحصلون عليه في ميادين التنافس المادية والدنيوية، كالتنافس في المناصب الدنيوية والتنافس الرياضي، أما القرآن فلم يستخدم لفظة الفوز لهذا المعنى.

الفوز في القرآن:

وردت كلمة الفوز بصيغ واشتقاقات عدة، ومن استقصاء مواضعها في القرآن الكريم نجدها استعملت في أحد المعاني الآتية:

أ. النجاة من النار ودخول الجنة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ

(٥٠) ينظر: مدارك التنزيل ١/ ٤٠٤.

(٥١) ينظر: صفوة البيان ٢٩٨.

(٥٢) ينظر: لسان العرب(فوز) ٥/ ٣٩٢.

﴿ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥] ومنه أيضاً: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة النساء: ١٣].

ب. طاعة الله ورسوله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الأحزاب: ٧١].

ج. رضوان الله تعالى، ومنه قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة المائدة: ١١٩].

د. الجهاد في سبيل الله، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة التوبة ١١١].

ه. الوقاية من السيئات :ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [سورة غافر: ٩] ومنه أيضاً: ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [سورة الفتح: ٥].

و. خشية الله وتقواه :ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾ [سورة النور: ٥٢].

فالفوز بالمعنى القرآني محصور في طاعة الله تعالى والبعد عن السيئات، وهو نفسه تقوى الله وخشيته، وما يترتب على ذلك من النجاة من النار ودخول الجنة.

وعلاقة الفوز بالنصر ظاهرة، ذلك أن انتصار المسلمين على أعدائهم وتفوقهم عليهم يمثل شكلا من أشكال الفوز عليهم بحسب المقاييس البشرية، ومن ناحية أخرى إن قتال المسلمين لعدوهم فيه أجر وثواب، وفوز برضوان الله في الآخرة.

خلاصة البحث و خاتمته:

تبيّن من دراسة هذا الموضوع المضامين الآتية:

أ. إن قضية النصر قد غدت قضية جدلية ملحة على الصعيد النظري والفكري والواقعي.

ب. ما يجول في أذهان ملايين المسلمين من سؤالات عن غياب النصر عن واقع المسلمين، حتى كأن الهزائم أصبحت قدرا علينا، فهل لهذا القدر من نهاية!. وهل لهذا الليل من آخر؟!.

ج. ما يتداوله كثير من الناس من مغالطات وأفكار خاطئة تتعلق بالنصر، فيها التشكيك والاستغراب والتخذيل.

د. تسليط الضوء على عوامل النصر وإبرازها.

ه. إثبات أن النصر يخضع لسنة إلهية وقانون رباني، وأن الأمر ليس من باب الصدفة والعشوائية.

و. إيصال فكرة أن النصر لا يصنع نفسه، وأن الجهد البشري مع عوامل النصر الأخرى هي أبرز مقومات النصر.

ز. كشف البحث عن طائفة من الألفاظ التي استعملها القرآن الكريم، للدلالة على النصر في ساحة المعركة، سواء بلفظ النصر الصريح، أو بما يدل عليه من ألفاظ وظفها القرآن الكريم للدلالة على النصر، وهذه الألفاظ هي: (النصر، والأخذ، والأمر، والبشرى، والتمكين، والظفر، والغلبة، والفتح، والفوز). وحاول الباحث التفريق بين معاني بعض من المفردات الدالة على النصر ومقابلاتها من المفردات اللغوية، اعتماداً على سياق الآيات التي وردت فيها هذه الألفاظ.